حركة الاستشراق في فرنسا

◆

بحثنا هذا في حركة الاستشراق التي ارتسمت في اوربا يصح ان يكون مقدمة لابحاث اخرى في هذا الصدد . اما هذه الحركة فيرجع عهدها على ما هو معروف لاتساع الفتوحات الاسلامية العربية التي جعلت الشرق والغرب وجهاً لوجه ودفعت الغربيين الى استطلاع عادات اهل الشرق ولغاتهم واساليب حياتهم ثم امتدت واسعة النطاق مستحكمة الحلقات من القرن الثاني عشر – على الغالب – الى القرن العشرين فكان لهذه الحركة اعلامها وامجادها ممن تركوا في اللغة العربية خاصة وفي اللغات الشرقية عامة آثاراً تذكر فتشكر .

لا اتحدث اليكم الان بمسألة درس اللغات الشرقية التي اسميها مسألة الاستشراق من وجهتها الاوربية العامة بل من الوجهة الفرنسية لان هذه المسألة قد اتخذت في فرنسا شكلاً جدياً خاصاً واستقرت هناك على اسس العلم والبحث والتنقيب ولذلك لا مبالغة في القول ان فرنسا حملت مشعل الاستشراق في الغرب بفضل ما اسست لدرس اللغات الشرقية من معاهد وما اخرجت لنا من علماء وبحاثين مهدوا لمستشرقي اوربا سبل التعرف الى لغات الشرق .

لقد ادركت فرنسا انها بحاجة الى علماء يعرفون اللغات الشرقية وبخاصة منها العربية ولذلك تأسست في باريس في ٢٩ نيسان من سنة ١٧٩٥ مدرسة اطلقوا عليها بمدرسة اللغات الشرقية وهدفها تعليم لغات الشرق الحية كالعربية والفارسية والتركية فأخرجت طائفة كبيرة من المستشرقين الفرنسيين بل الاوربيين من المان وطليان وسويسرانيين وغيرهم . وجدير بالذكر ان هذه المدرسة نفسها اصبحت فيما بعد مثالاً انشئت على هيئته المدارس الشرقية في مختلف عواصم اوربا . كان من نتيجة ذلك النجاح الذي صادفته مدرسة باريس هذه ان اتسع نطاق برنامجها حتى شمل بالاضافة الى اللغات المتقدم ذكرها ، اهم لغات الشرق الاقصى كالصينية واليابانية والانامية ثم الارمنية والهندستانية . ولم تكن مرجعاً لطلاب اللغات الشرقية فحسب بل انها كانت في الوقت نفسه مرجع الذين يتهيأون للمناصب القنصلية في الشرق . ولا بد من ان نذكر هنا ما كان لسلفستر ده ساسي المستشرق الفرنسي العظيم من يد بيضاء في تأسيسها بل في توجيه حركة الاستشراق في اوربا عامة . وقد تخرج عليه طائفة من علماء اللغات الشرقية نختص منهم بالذكر فلجانس فرسنل الفرنسي الذي عينته حكومة بلاده قنصلاً لها في جده حوالي سنة ١٨٣٧ حيث كان ينصرف كقنصل ويدرس كمستشرق حتى عرض له ان التحق ببعثة علمية للبحث بخرائب بابل وشاء القدر ان يموت في العراق تاركاً رسائل واسعة في تاريخ العرب وآدابهم وآراء قيمة في الكتابات الحميرية .

ولم تنقض فترة قصيرة حتى اخذت دول اوربا تهتم اهتماماً متزايداً بمسألة اللغات الشرقية الحية وظلت فرنسا في اثناء القرن الثامن عشر مطمح انظار المستشرقين بفضل مدرستها اولاً ثم بفضل اولئك الذين تخرجوا على العلامة سلفستر ده ساسي وظلوا سائرين على اثره في طليعة مستشرقي اوربا . ومن تلامذته الذين يستحقون الذكر اتيان كاترمير الاشهر الذي ألف ما يزيد عن مائة كتاب في جميع اللغات السامية وترجم تاريخ المالك في مصر للمقريزي مع تعاليق حواشيه وعني بنشر مقدمة ابن خلدون في ثلاثة اقسام وترك مؤلفات عديدة في آثار القبط والبابليين والسامريين والافريقيين والعبرانيين وغيرهم .

ولم تنحصر مجهودات المستشرقين الفرنسيين بهذه النواحي من حياة الشرق العربي بل تخطتها الى شؤون الزراعة عند العرب فترجم المستشرق الفرنسي كليان موله للفرنسية كتاب الفلاحة من وضع الشيخ زكريا الاشبيلي المعروف بابن العوام واستوعب نقله مجلدين مع التعليق عليه . وقد توفي موله في سنة ١٨٧٠ حيث اعترض حركة الاستشراق في فرنسا فترة جمود يرجع سببها للحرب السبعينية الشهيرة وما جرته عليه من صعوبات وخسائر . وفي اثناء هذه الفترة ذاتها توفي المستشرق الفرنسي كوسان ده برسفال الذي خدم كترجمان في الاستانة ثم جال بعد ذلك ثلاث سنوات في بلاد الشام وتوغل في باديتها وخالط سكانها من البدو وقيل انه اشترى جياداً اصيلة نقلها معه الى فرنسا ومن الثابت انه اتقن اللهجات العربية على اختلاف ألوانها وقضى حياته في درس اثار العرب وتاريخهم وله في هذا الصدد كتاب يقع في ثلاثة مجلدات وتراجم قيمة للموسيقيين العرب وتآليف ومقالات في آداب الشرق . وهناك مستشرق فرنسي يستوقف ذكره انتباه ادباء العربية اليوم كما استوقف انتباههم من قبل وهو لويس سيديلو الذي وضع تاريخاً للرياضيات عند اليونان وعند العرب . ووصف مجهودات العرب في العلوم الفلكية وصفاً مستفيضاً لم يتردد معه في تعظيم اكتشافاتهم حتى بخس اليونان حقهم . ومن اجل ذلك قام بينه وبين علماء عصره جدال عنيف حول عبقرية العرب وعبقرية اليونان في الاكتشافات الفلكية وسواها . وكذلك في كتابه تاريخ العرب قد خصهم بايات الشكر والتعظيم وقد نقل هذا الكتاب الى العربية احد ادباء مصر . واذا ألقينا نظرة على المغرب نجد ان لهجات البرابرة هناك كانت موضع عناية بعض كبار المستشرقين الذين صرفوا لدرس هذه اللهجات وتمحيصها وألفوا فيها كتباً قيمة كما انهم ألفوا في تاريخ البرابرة وعاداتهم واخلاقهم كتباً ألقت كثيراً من النور على عصور المغرب المظلمة . وقد تقصى المستشرق الفرنسي كيسان ده سلان اخبار البربر ودرس عن قرب اشكال حياتهم فوضع في هذا الصدد تاريخاً جزيل النفع والقيمة يقع في ست مجلدات ثم انعكف على درس مقدمة ابن خلدون فأنجز مهمة بدأ بها المستشرق الاشهر كاترمير وهي ترجمة هذه المقدمة وكان له الفضل في طبعها في ست مجلدات ثلاثة منها عربية وثلاثة فرنسية . هذه نظرة عامة في موضوعنا تمتد على التقريب من سنة ١٧٩٥ السنة التي تأسست فيها مدرسة اللغات الشرقية في باريس حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث اخذت حركة الاستشراق تنتظم وتنتشر في اوربا بوسائل البحث والتنقيب الحديثة . ولا بد من القول في النهاية ان هذه الحركة كان لها تأثيرات بالغة في تحول اللغة العربية والمعارف العربية الى النهضة والاصلاح والتجديد . فالجانب الاوفر من ابحاث المستشرقين اصبح مراجع اهل الفكر والقلم عندنا في غير ناحية من نواحي العلم لان هذه الابحاث هي نتيجة الاختصاص المتقن والاستكشاف العلمي المتواصل . فبالاختصاص والاستكشاف العلمي توطدت حركة الاستشراق وكانت عاملاً من عوامل توثيق الصلات بين الشرق والغرب وكان لمدرسة اللغات الشرقية في باريس ولاولئك الذين تخرجوا منها يد بيضاء في التقريب بين البلاد العربية واوربا في هذا المنحى .

نسيم يزبك